

جنون العارف وحب الزاهد في ضوء الحب العذري (شيخ صنعان وسلامة القس نموذجاً)

يحيى عبيد صالح عبيد^١، غلام حسين غلام حسين زاده^٢، كُبرى روشن فكر^٣

تاريخ الوصول: ١٤٣٢/٣/١٦

تاريخ القبول: ١٤٣٢/٧/١٨

تُعتبر قصة شيخ صنعان (ف ٢١١ هـ.ق) من أشهر قصص الحب العرفاني عند العرفاء والزهاد وهي تقابل قصة عبدالرحمن ابن أبي عمّار الجشمي الناسك المشهور بالقس (ف ٨٣ هـ.ق) عند الزهاد. تميزت قصة سلامة القس بوجود خصائص الحب العذري فيها وهو النوع الذي يراه العرفاء والزهاد الطريق المؤدي إلى الحب الحقيقي وشرطاً للوصول إلى الخبوء الأزلي حسب المقولة الشهيرة «الحجاز قنطرة الحقيقة».

بعد دراسة قصة شيخ صنعان والبت المسيحية تبين وجود عناصر الحب العذري فيها وأنها ملائمة جداً للمقارنة بينها وبين قصة سلامة القس باستخدام المنهج التاريخي أولاً ثم المنهج الوصفي - التحليلي على أساس النقد الأدبي والمقارن للمدرسة الأمريكية من حيث المضمون وموضوعات الحب العذري مع مراعاة خصائص هذا النوع من الحب لما له من أهمية في البحث الأدبي خصوصاً الغزل وصلة الحب العذري بالحب الإلهي، لذا فإنّ كشف أوجه الاختلاف والتشابه بين القصتين للوصول إلى الاختلافات الفكرية والثقافية والمذهبية السائدة في ذلك الوقت سيُلفت إنتباه الباحثين في هذا المجال إلى إمكانية دراسة قصص الحب بنظرة جديدة ومقارنتها مع نظيراتها في ضوء الحب العذري.

الكلمات الرئيسية: شيخ صنعان، سلامة القس، مضامين الحب، الحب العذري، الأدب المقارن

١. طالب دكتوراة بقسم اللغة الفارسية و آدابها، جامعة تربيت مدرّس، طهران، yahyaobaid@live.com

٢. الأستاذ المشارك بقسم اللغة الفارسية و آدابها، جامعة تربيت مدرّس، طهران، gholamho@modares.ac.ir

٣. الأستاذة المساعدة بقسم اللغة العربية و آدابها، جامعة تربيت مدرّس، طهران، KRoshanfeker@gmail.com

مقدمة

تعددت قصص الحب لدى الزهاد والفقهاء والعرفاء والمتصوفة بتعدد مواقفهم ومواقفهم وأخذت طابعاً تعليمياً مليئاً بالعبارة والموعظة. هذه القصص تتشابه بعض الأحيان في بدايتها أو نهايتها وقد تختلف في سرد الأحداث. وتتميز قصص هؤلاء الزهاد بالقصر والإيجاز وعمق المضمون، وقد تكون قصة شيخ صنعان أطول قصة قصيرة عرفها الزهاد والفقهاء.

نجد شخصيتي القصة الرئيسيتين متشابهتان في معظم هذه القصص، كأن يكون الحب فقيهاً زاهداً والمحبة فتاة نصرانية أو جارية جميلة أو مغنية ذات طربٍ وولٍ وما إلى ذلك.

لقد حازت قصة شيخ صنعان على أهمية كبرى لدى الباحثين فمنهم من قال أن لها جذوراً تاريخية قديمة، إلا أن بطلها لم يكن شيخ صنعان، ومنهم من يعتقد أنها من نسج الخيال، ومنهم من ذكر أنها مستوحاة من عدة قصص مثل: راقد الليل؛ صالح المؤذن (ف؟)؛ ابن السقاء؛ علي المقرئ ولي خانقاة سمرقند والعابد الذي عبد الله ٣٠٠ عام على ساحل البحر (عطار: ١٣٨٧، ص ٥٦-٦٥) وكذا قصة الرجل الذي أحب النصرانية فتنصر قبل موته علّه يلقاها في الآخرة واسلمت هي الأخرى أملاً في أن تراه في الآخرة.

تطالعنا قصة شيخ صنعان بادئ ذي بدء في كتاب تحفة الملوك المنسوب للغزالي (راجع: دانش پژوه، ١٣٤٤، ص ٢٩٥) ومن ثم كتاب منطق الطير لفريد الدين العطار (راجع: عطار، ١٣٨٥، ص ٦٧-٨٨)؛ لكن رغم ذلك فما زال سبب إختيار العطار لشخصية شيخ صنعان بطلاً لروايته مجهولاً. وبحسب ما ورد في موسوعة الألقاب اليمنية أن شيخ صنعان يعود في نسبه إلى الأبناء، (المقحفي، ج ١، ص ١٨) والأبناء هم الإيرانيون الذين حاربوا جنباً إلى جنب مع سيف بن ذي يزن لإخراج الأحباش من اليمن. وأكبر الظن أن هناك علاقة بين إختيار الشخصية وبين الأصل

القومي لها. أما بعض المحققين فقد رجّحوا أن شيخ صنعان هو الأستاذ عطار (ستاري، ١٣٨٧، ص ٨) والبعض الآخر يرى أن العطار تقمّص شخصية شيخ صنعان (القيسي، ١٩٦٥، ص ٦).

تطالعنا قصة سلامة القس في كتب الأدب العربي بادئ ذي بدء في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة (راجع: ابن قتيبة، ١٩٩٦، ج ٤، ص ١٣٤) ثم كتاب الأغاني لإبي الفرج الإصفهاني (راجع: الإصفهاني، ١٩٣٥، ج ٨، ص ٣٣٥). هذه القصة هي أقل حدة من القصص السالفة الذكر، حيث لا إفراط ولا تفريط فيها وتشابه في سياقها مع قصص حب الفقهاء والزهاد إلا أنه لا يوجد فيها إسراف وكفر، بل حب عفيف طاهر غلب عليه الوجد والتأمل من أمثال قصة حب عبید الله بن عتبة بن مسعود مع عثمة (الجواري، ٢٠٠٦، ص ١٠٦) وقصة حب ابن حزم مع الجارية التي نشأت في دارهم (راجع: ابن حزم، ١٩٩٣، ص ٢٤٩) وما ورد من قصص تشبهها في كل من ديوان الصبابة لابن أبي حجلة؛ مصارع العشاق للسراج القارئ؛ كتاب الزهرة لابن داود الظاهري وروضة المحبين لابن قيم الجوزية ولو دققنا أكثر لوجدنا أن مؤلفيها هم من طبقة الفقهاء، فكل هذه القصص تُظهر مدى تأثر الفقهاء والزهاد بالمرأة - التي كانت يوماً ما سبباً في إخراج آدم من الجنة - على الرغم من عبادتهم ونسكهم. وما أجمل ما قال شاعر إيران المعاصر عمران صلاحی:

«آدم، به جرم خوردن گندم

با حوا

شد رانده از بهشت

اما چه غم

حوا، خودش، بهشت است»

(رستگارفاسایی، ١٣٨٠، ص ٦٦٨)

الترجمة: آدم، بحريرة أكله الحب؛ مع حوا؛ أُخرج من الجنة؛ لكن لما الأسى؛ حوا، هي نفسها، حنة.

خلفية البحث

حظيت قصة شيخ صنعان بدراساتٍ مستقلة نذكر على سبيل المثال: ما ورد في كتاب منطق الطير عطار حول قصة شيخ صنعان من شرح وتعليق بقلم مصححين ومحققين عدة. كما أنَّ جلال ستاري قد خصص كتاب (پژوهشي در قصه‌ي شيخ صنعان ودختر ترسا) لدراسة القصة. وكذا هو من يوسف دهي الذي قام بشرح القصة من الناحية العرفانية في كتاب (حكايه عشق صنعان)، أما جلال الدين كزاي فقد فُتد أبيات القصة معتمداً على نسخة صادق گوهرين تفنيداً لغوياً تاريخياً في كتاب (پارسا و ترسا) وغيرها من الأبحاث.

أما قصة سلامة القس فلم تحظ بدراسة تفصيلية كما حظيت به قصة شيخ صنعان، فمن الأبحاث التي ذكرت القصة ما ذكره أحمد عبد الستار الجواري في كتابه (الحب العذري نشأته وتطوره) حول القصة، أما عبد الحكيم الزبيدي فقد تناول القصة المسرحية لعلي أحمد باكثير في مقالته «علي أحمد باكثير: حياته من أدبه، رواية (سلامة القس) نموذجاً» مجلة الرافد، وزارة الثقافة، الشارقة. هذا ولم تُشر نتائج البحث إلى وجود دراسة مقارنة بين القصتين على الأقل في الوقت الحالي، لذا رأينا أنَّ من الأخرى دراسة هاتين القصتين دراسة مقارنة لمضامين الحب العذري فيهما.

تعريف وأصول نظرية

تعددت التعاريف والأقوال حول ماهية الحب العذري إلا أنَّها تدور حول محور واحد، فمنهم من يعتبره حباً بعيداً عن الفلسفة وتحليلاتها وتفاعيلها ومراحلها إذ هو حياة كان يعيشها فئة من الناس يعشق الواحد منهم ابنة عمه غالباً أو غيرها، ثم يطلبها للزواج فيحال بينهما فيظل يتغنى بها في شعره ويحلم بها في وجدانه. (ابراهيم، ١٩٧٢، ص ١٣٤)

ومنهم من قال أنَّه عاطفة قوية مشبوبة، يهيم فيها الحب بحبيته ويرجو الخطوة بوصالها ولكن تتضاءل لديه النظرة إلى المتع الحسية، إذ يطغى عليها حرص الحب على استدامة عاطفته في ذاتها. (غنيمي هلال، ١٩٧٦، ص ١٧)

أما علاقته بالحب الصوفي فإنهم يشيرون إلى ذلك بقولهم: «ما الحب الصوفي إلا حُبْ عُذري تطور تحت تأثير عوامل دينية وفلسفية» (م.ن، ص ٣٨) «فهو الذي أعدَّ فيما بعد لظهور الحب الصوفي» (ضيف، ١٩٩٩، ص ٢٣) أمَّا بالنسبة لخصائصه الشعرية أو القصصية فقد تتفاوت ما بين مؤلف إلى آخر وذلك تبعاً لوجهة نظر كل منهم في الحب العذري. وقد اعتمدنا في كتابة خصائصه على عدد غير قليل من الكتب على سبيل المثال: كتاب الزهرة لابن داود الإصفهاني، طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي وروضة المحبين لابن قيم الجوزية ومن الكتب المعاصرة: كتاب الحب العذري نشأته وتطوره لأحمد عبد الستار الجواري، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام لشكري فيصل، الحياة العاطفية لمحمد غنيمي هلال وديوان مجنون ليلى لزكي درويش وغيرها. بحيث تعطي فكرة واضحة لدى القارئ عند التحليل.

خصائص الحب العذري

من خصائص الحب العذري أنه حب عفيف صادق لمحوبة واحدة؛ فالحب يُحب محبوبه لذاته، ليس لشيءٍ فيها؛ وينمو ذلك الحب بنمو العاشقين إلى أنَّ يصل ذروته بمرور الزمان ويلعب السعي لكتمان الحب دوراً بالرغم من ظهوره على الملأ بسبب غلبته على صاحبه؛ أما السعي للزواج بالمحوبة فهو من متطلبات هذا النوع من الحب مع وجود عوائق وموانع متعددة تحول دون الزواج بالمحوبة، سواء كانت عوامل خارجية مثل الفقر أو وقوع أحد الحبيين في مشكلة، أو عوامل داخلية

مثل العفة أو المعتقدات الدينية أو العادات والأعراف الاجتماعية، فهي تحول دون الوصول للمحبوبة، نرى أنَّ العاشق لا يألو جهداً في السعي لزيارة الحبيبة؛ بحيث لا تقل أهمية عن طلب الوصال، أما تصوير حالة اليأس بسبب الفراق والهجران فلا تخلو منه القصة لأنه من أسباب معاناة الحب؛ أيضاً طلب المساعدة من الرفقاء والأصحاب والأقرباء لمشاركته في محنته أو من أجل الحصول على أخبار المحبوب؛ وصول الحب في بعض الأحيان إلى مرحلة الجنون والسعي لمداواته من قبل الأقرباء؛ كما نراه يتعجب من الرقيب والواشي وكذا من العاذل واللائم والناصح المشفق وعدم الإقرار لهم بما يريدون؛ أحياناً نراه يعلن الرضى بالقليل من المحبوب؛ وتحمل المشقة، المعاناة، الرحيل والترحال من أجله؛ وفي نهاية المطاف، الوفاء والتضحية لمن يحب؛ بهذا يتجلى لنا الحب العذري العفيف الطاهر من خلال خصائصه التي يسلكها الحب في حبه. وهي إن لم تكن قريبة من مراحل السلوك عند العرفاء فهي بالتأكيد ليست بعيدة عنها مع اختلاف جوهرها.

خلاصة قصة شيخ صنعان

كان شيخ صنعان معتكفاً في الحرم المكي فرأى في منامه أنه في بلاد الروم ويسجد لصنم (فتاة جميلة). فقال لمريديه أنه ينبغي عليه الذهاب إلى هناك ليعرف سير الرؤيا؛ فتبعه مريدوه إلى هناك، وبعد أن طافوا أرجاء البلاد، وقعت عين الشيخ على فتاة تُطلُّ من إحدى الشرفات، رائعة الجمال، مسيحية الدين، فشغف بها حباً، فلزم حبيها، واقفاً تحت شرفتها، وكلما مضى عليه الوقت ازداد ولهاً وهياماً، نصحه أصحابه أن يرجع معهم إلى مكة ليلزموا الحرم كما كانوا من قبل، فلم يصغ إلى نصيحهم فتركوه وذهبوا ولكنه لم يرح مكانه.

انتهت الفتاة إلى حاله ونصحته بالإنصراف، لأنه مسلم وهي نصرانية، وهو شيخ كبير في السن مُشرف على القبر

وهي فتاة طرية العود، فأخذ يتضرع إليها ويعرض عليها حبه وعبوديته، فقالت له إن أردت وصالي، فاسجد للصنم واحرق القرآن واشرب الخمر واترك الإسلام. فقال الشيخ: لقد اخترت الخمر ولا شأن لي بالثلاث الباقيات. فأخذته إلى البيت فشرب وتناول كأساً بعد أخرى، فلما سكر حاول أن يُعانيها، فقالت له: إذا أردت أن تكون من نصيبي فكن نصرانياً مثلي، فتنصّر ورضي أن يحرق القرآن فبلغ النصراري الخبر، فحملوه إلى الدير ولبس حزام الصليب (الزَّنار) فطالبها بالوصل فطالبته بالمهر والصداق فتعذر بالفقر والفاقة وقدم حبه شقيقاً وذكرها بوعداها إياه وطالبها الوفاء بالوعد فطلبت بديلاً لمهرها وصداقها أن يرعى الخنازير سنة كاملة، ففعل، فلما رآه أصحابه على هذه الحال، نصحوه ولاموه ولكن دون جدوى فلما يئسوا منه تركوه وعادوا إلى مكة.

كان للشيخ مريدٌ صالح غائب عن مكة حين غادرها الشيخ وأصحابه إلى بلاد الروم، فلما عاد إلى مكة وتفقّد شيخه، أخبروه القصة، فتألم كثيراً ولا مهم على تركهم إياه وعدم متابعتهم له، فأشار عليهم بالرجوع إلى بلاد الروم، فاعتكفوا أربعين ليلة بجوار الشيخ متوجهين بالدعاء والتضرع إلى الله ليخلص شيخهم من هذه المحنة، فاستجاب الله لدعائهم، ومع بزوغ فجر الحادي والأربعين جاء الرسول (ص) بالبشارة لذلك المريد في منامه بخلاص الشيخ فبشر أصحابه، فذهبوا جميعاً إلى الشيخ، فرأوه قد خلع حزام الصليب (الزَّنار) وعاد إلى حظيرة الإسلام فأغتسل ولبس ردائه (حرقته) وعمامته وسار مع مريديه صوب الكعبة.

في تلك الليلة ترى الفتاة المسيحية في منامها أنَّ الشمس قد هبطت بجوارها وتحدثت معها قائلة لها أن تلحق بالشيخ وتتبع دينه وتسلك طريقه. فلما استيقظت سارت في أثره. فألهم الله الشيخ بذلك. فرجع الشيخ أدراجه، فخشي مريدوه أن يكون قد نكص عن التوبة فحكى لهم حال

الفتاة فساروا معه إلى حيث هي، فأروها تسحب نفسها على الأرض من شدة التعب، فلما رأت الشيخ أغمي عليها وانحدرت الدموع من عيني الشيخ متساقطة على وجهها عليها تخرُّج من حالة الإغماء، فلما فتحت عينيها انكبت على قدميه وطلبته أن يعرض عليها الإسلام، فعرضه عليها ودخلت في الإسلام.

(تختلف الرواية بعد هذه النقطة) ففريد الدين العطار وغيره من الأدباء يروون أن الفتاة بعد أن وقع الإيمان في قلبها، لم تستطع أن تتحملة فودعت شيخها وفارقت الحياة ودفنوها هناك وعاد الشيخ وأصحابه إلى مكة. لكن في رواية تحفة الملوك أن الفتاة بعد إسلامها ذهبت مع شيخ صنعان إلى الكعبة وانتهت القصة بزواجهما.

خلاصة قصة سلامة القس

كان عبدالرحمن ابن أبي عمّار الناسك من القراء ورواة الحديث الذين اشتهروا بالعبادة والزهد في العصر الأموي، ليس له شغل سوى التمسك والعبادة حتى لقبه الناس بالقس. أما سلامة فكانت مولدة من مولدات المدينة وبها نشأت وقرأت القرآن وروت الأشعار وهي قينة من قيان سهيل بن عبد الرحمن.

تصادف يوماً أن سمع القس غنائها فأظهر استحسانه وافتتانه به ورأه مولاها أمام داره وهو يهدف سمعه، فدعاه أن يدخل إليها فيسمع منها، غير أنه رفض مظهرًا تخرُّجه، فقال له: سأفعلُك في مكان تسمعها ولا تراها ولا تراك، فقال أما هذا فنعم، فأدخله داره وأجلسه حيث يسمع غنائها. فلما طال سماعه لها قال له: هل لك في أن أخرجها إليك؟ فأبى. فلم يزل به حتى أخرجها، وأقعدا أمامه وهي تضرب على العود وتغني وسرعان ما فتن بها وفُتنت به وشاع ذلك بين الناس حتى غلب عليها لقبه، فسموها

سلامة القس. إحتل حب سلامة قلب القس وأخذ يستأثر بكل مشاعره وعواطفه، حتى حوله إلى شاعر غزل ينظم الشعر، فيلقي ذلك الشعر على صاحبه فتغنيه وتُضفي على عذوبة شعره جمال صوتها.

تمر الأيام ويظهر الضمور والنحول على جسم القس لأنه لا يحب حباً عادياً فيه فرح ومتاع وإنما يحب حباً عذرياً طاهراً كله حرمان وعناء ووجد. وكذا تبادت سلامة في حب القس وكلما شعرت أنها تقترب منه بعواطفها أحسّت به يبعدها عنه، وظلاً على هذه الحال يلتقيان ويتجاذبان أطراف الحديث وينظم القوافي لها وتغنيها. فتملكت عاطفة الحب على قلب سلامة ومشاعرها وتمت أن يضمها القس إلى صدره يوماً ولكنها كلما لقيته أكبرته وأجلته وشعرت كأن حجاباً منيعاً يحجب بينهما.

وصل الحب ذروته فقالت له ذات ليلة: أنا والله أُحبك، فقال: وأنا والله أُحبك، فقالت: وأنا اشتهي أن أعانقك وأقبلك، فقال: وأنا اشتهي مثل ذلك، فقالت: فما يمنعك وأن الموضوع لخال، فقال: يمنعني أن أنعم بحبك في الدنيا وأشقى به في الآخرة فنغدو يوم القيامة من الأخلاء الأعداء الذين ذكرهم الله في قوله: «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين» (الزخرف، ٦٧) وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تقول إلى عداوة. ثم قام وانصرف عنها. وعاد إلى ما كان عليه من التمسك. أما سلامة فتعود إلى المدينة وما لبثت أن اشتراها يزيد بن عبد الملك فرحلت إلى الشام وبها ماتت ودفنت. وتنتهي القصة بفراق الحبيين.

من خلال الأحداث المتسلسلة للقصة قُمنّا بعمل جدول توضيحي للتتابعات السردية تمهيداً لاستخراج مضامين الحب وتحليلها في ضوء خصائص الحب العذري.

جدول مقارنة التتابعات السردية للقصتين

م	الموضوع	شيخ صنعان برواية فريد الدين العطار	سلامة القس برواية أبي الفرج الإصفيهاني
١	بداية الحب	عن طريق الرؤيا في المنام.	عن طريق سماع صوتها وهي تُغني.
٢	كيفية ظهور الحب وموقف الرفقاء	من أول نظرة للفتاة والبقاء أسفل شرفتها. الرفقاء هم طلابه فمنهم الناصح المشفق ومنهم اللائم العادل.	الوقوف بجانب منزلها والاستماع لغنائها. مولى سلامة وهو ناصح مساعد له.
٣	أول لقاء بالحببية وطلب الزواج	تفرغ الفتاة من صراحة الشيخ بحبه لها وتنهره فيظهر الشيخ رغبته في الزواج منها فتخبره بعدم امكانية ذلك لعدة أسباب.	كلّ ييدي استحسانه واستثناسه بالآخر. ولكنّ القصة لم تذكر أنه طلبها للزواج أو عدم امكانية ذلك.
٤	عوائق خارجية	فارق السن: هو شيخ كبير في السن جاوز الخمسين وهي مازالت صغيرة. فارق إجتماعي ومذهبي: هو شيخ طريقة عربي مسلم وهي راهبة رومية مسيحية. فارق مادي: هو فقير متقشف وهي ميسورة الحال كونها تملك مزرعة خنازير.	هو أكبر منها سنّاً وهي مازالت في ريعان شبابها. هو زاهد ناسك غلب عليه لقب القس لتعبده وهي جارية مغنية. لم يكن غنياً ولم تشر القصة إلى أنه فقير وإنما اشارت إلى قوة زهده وخوفه من الله.
٥	عوائق داخلية	الحالة الفكرية والنفسية: هو عاشق مُتيمُّ يُريد الوصال كيفما اتفق، وهي غير آبهة به، فالحب هنا من طرف واحد.	حبه لها حب استحسان وتأمل وعفاف، وحبها له حب حسي يشوبه نزوات نفسية.
٦	موانع الزواج	وضع الشروط الثلاثة للخلاص منه.	الفارق الإجتماعي والفكري (فهي جارية مغنية ذات طرب ووله، وهو حرّ زاهد ذا تقوى وزهد)
٧	لقاءات متكررة	يجلس الشيخ مع الفتاة ويمد يده لمعانقتها في حال سكره فتنهره، فيتنصّر، فتطلب المهر، فيرعى لها الخنازير بديلاً عنه.	تتعلق سلامة بالقس ويُذاع خبرها فيغلب عليها لقبه. يجلس إليها ويستمتع غنائها ويأتيها بالأشعار فتغنيها.
٨	لقاء أخير	يمل الشيخ من رعي الخنازير ودلال الفتاة فيتركها دون أن تعرف.	يشدد حب سلامة للقس فتطلب منه معانقتها فيرفض ويتركها.
٩	حب أبدي أم عابر (الحجاز قطرة الحقيقة)	يتوب شيخ صنعان عن حب الفتاة ويرحل عائداً مع أصحابه إلى مكة. أمّا الفتاة فتحاول اللحاق به.	ينصرف عبد الرحمن الناسك عن حب سلامة بسبب خوفه من الله ويعود إلى خلوته حاملاً زهده وعفافه
١٠	نهاية القصة	يعود الشيخ من منتصف الطريق مستجيباً لنداء القلب ليلقى الفتاة ولكن الراوي يُنهي القصة هنا بموت الفتاة وعودة الشيخ وحيداً مع أصحابه إلى مكة.	تنتهي القصة بفراق الحبيبين وتغادر سلامة إلى المدينة ومن ثم إلى دمشق.

دراسة مقارنة لمضامين الحب في القصتين

شيخ صنعان فقيهاً عالماً وراوية للحديث في اليمن ومكة، أمّا الفتاة الرومية فقد نشأت راهبة زاهدة في إحدى الكنائس في بلاد الروم. لذا فإنّ المكان الجغرافي للقصة قد شَمِلَ أرض الحجاز «الكعبة» إلى أن وصل أرض الروم

كما لاحظنا أنّ أحداث قصة شيخ صنعان قد دارت في العصر العباسي، وأنّ اسمه هو عبدالرزاق بن همام الصنعاني الأبنائي وعشيقته هي فتاة راهبة مسيحية رومية^١. نشأ

ومراتب بعكس الشعراء وما أعنيه هنا هو قول الشاعر
بشار بن برد (٩٦-١٦٨ هـ.ق):

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقةً

و الأذن تعشق قبل العين أحياناً

(اصفهانى، ج٦، ص٢٤٢)

فالحب عن طريق السماع لصوت المحبوب أو وصفه
معروف في كلى الأديين فقصة خسرو وشيرين أو گل
ونوروز كانت بدايتها عن طريق سماع وصف المحبوب.
كذا في الأدب العربي، فقصة حب يزيد لحبابة أو لأرينب
(راجع: ابن قتيبة، ٢٠٠٩، ج١، ص٢٤٠) كانت كذلك.

إلا أن معظم قصص الحب المشهورة في الأدب العربي تبدأ
بنظرة أو لقاء المحبوب والتحدث إليه لما له من أثر في
النفس. فبداية الحب هنا هو تجلي الجمال الظاهري سواءً
في الرؤيا أو السماع بالنسبة لكلى العاشقين باعتبار أن عبد الرزاق
بن همام شيخ عارف وعبد الرحمن ابن أبي عمّار زاهد
ناسك. المضمون الذي يمكن ملاحظته هو أن الحب هنا
حب تعجب وتأمل مُحاط بالعفة لا تخالطه شهوة عابرة.

٢. إفشاء السرّ وموقف الرفقاء: رأينا في كلى
القصتين أن كلى العاشقين شيخ صنعان وعبد الرحمن
الناسك قد وقف أمام دار الحبيبة فالأول يقف تحت شرفتها
بانتظار التفاتة أو نظرة منها والآخر يقف مستمعاً منصتاً
لصوتها وهي تغني. بهذا الموقف ظهرت علائم الحب وشاع
أمره بين الناس. نلاحظ هنا فارقاً في ردة الفعل لدى
أصحاب شيخ صنعان المتمثلين في مريدیه فهم تارةً
ينصحونه وتارةً يلومونه على فعلته هذه، لذلك نجد يدافع
عن موقفه هذا كمايلي:

آن دگر گفستا که ای دانای راز

خیز، خود را جمع کن اندر نماز

«الدير والكنيسة». كذلك بالنسبة لقصة سلامة القس فقد
لاحظنا أن القصة حدثت في العصر الأموي وأن اسمه عبد
الرحمن ابن أبي عمار الجشمي الناسك المشهور بالقس وعشيقته
هي سلامة المغنية وقال بعضهم أنها هي سلامة الزرقاء (ابن-
الجوزى، ١٩٩١، ص٤١) وهذا غير راجح^٢. نشأ كلا
العاشقين في مكة والمدينة إلا أن سلامة تسافر إلى الشام
وتُدفن هناك. لذا فإن المكان الجغرافي للقصة لم يتعدى مكة.

و عليه فإن شخصيات القصتين على الأقل ثلاث منها
تاريخية. وللقيام بتحليل مقارن لجدول التتابعات السردية
وتجزئة مضامين الحب المستخرجة منه يتطلب الإلتزام
بالعناوين التالية:

١. بداية الحب: تبدأ قصة حب شيخ صنعان عن
طريق الرؤيا في المنام بشكل متكرر لفتاة في الروم وهو ما
تتماز به قصص الحب في الأدب الغنائي والعرفاني خاصة،
فإذا لم تبدأ قصة الحب بالرؤيا فأنها موجودة في إطار القصة
لما لتعبير الرؤيا والأحلام من مترلة كبيرة لدى العرفاء
والمتصوفة، لذلك نجد شيخ صنعان مليئاً بالأسى والتعجب
وهو يصف هذه الرؤيا بالعقبة:

چون بدید این خواب، بیدار جهان

گفت: «دردا ودریغا این زمان،

یوسف توفیق در چاه افتاد

عقبه ای دشوار در راه افتاد

من ندانم تا از این غم جان برم

ترك جان گفتم، اگر ایمان برم»

(عطار، ١٣٨٧، ١٢٨)

أمّا قصة حب عبد الرحمن الناسك فتبدأ عن طريق
السماع لصوت المحبوب واستحسانه له. فالسماع له مكانة
خاصة سواءً عند العرفاء والزهاد أو الشعراء والأدباء، وما
يهمنا هنا هو الشعراء لأنّ السماع عند العرفاء له حالات

۳. أول لقاء بالحبيبة وطلب الزواج: ظل شيخ صنعان يصور حالة اليأس بسبب الفراق والهجران وما أن التقى بالفتاة حتى صارحها بحبه ورغبته بالزواج منها وهذا من متطلبات الحب العذري وليس كما يزعم بعض المحققين من أن الحب العذري ضد فكرة الزواج (راجع: العظم، ص ۷۰؛ لبيب، ص ۱۴۴) أما الناسك فإننا نراه يستسلم لعاطفة الحب من أول لقاء ويعترف بقوة هذه العاطفة وسيطرتها عليه حين يقول:

قد كنت أعدل في السفاهة أهلها
فأعجب لما تأتي به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم أنما

سبل الضلالة والهدى أقسام
(الإصفهاني، ج ۸، ص ۳۳۶؛ الجواري، ص ۱۰۹)
هذا الوله الذي صنفه في قائمة السفاهة ليس بعبید عمّا صوره شيخ صنعان في أن تلك الرؤيا عقبة ومشكلة. مع ذلك فقد اكتفى الناسك بزيارة المحبوبة ومجالستها ولم تذكر القصة أنه طلبها للزواج ولم تشر إلى محاولته شرائها من مولاها. ربما أن قربه منها واستئناسه بها أنساه أن يطلبها من مولاها، كما هي الحال بالنسبة للعشاق العذريين فهم لا يسعون للزواج في بداية الأمر من المحبوبة إلا إذا شعروا بوجود رقيب أو بخطر يهدد حبهم أما شيخ صنعان فأنا نجدّه يطلب الوصال في حوار مع الفتاة:

شيخ گفتش: چون زبونم دیده‌ای
لاجرم دزدیده دل دزدیده‌ای
یا دلم ده باز، یا با من بساز
در نیاز من نگر چندین مناز،
ای لب وزلفت زیان وسود من
روی وکویت مقصد وبه بود من..
روزگار من بشد در انتظار
گر بُود وصلی ببايد روزگار..

گفت: کو محرابِ رویِ آن نگار؟
تا نباشد جز غمازم هیچ کار..
آن دگر گفتا: پشیمانیت نیست؟
یک نفس، دردِ مسلمانیت نیست؟
گفت: کس نبود پشیمان بیش ازین
تا چرا عاشق نبودم پیش ازین..
آن دگر گفتش: که یاران قدم
از تو رنجورند ومانده دل دو نیم.
گفت: چون ترسابعه خوشدل بود
دل ز رنج این و آن غافل بود..
آن دگر گفت: این زمان کن عزم راه
در حرم بنشین و عذر خود بخواه
گفت: سر بر آستان آن نگار
عذرخواهم خواست، دست از من بدار
(عطار، ۱۳۸۷، ۱۳۱)
أما أصحاب عبدالرحمن الناسك المتمثلين في مولى سلامة فإنه يتودد إليه ويساعده على لقاءها. وكما رأينا أن عبد الرحمن الناسك قد حاول أن يُخفي حبه وإعجابه بسلامة لمن أراد مساعدته وأظهر حرجه وتعلله من الدخول لسماعها وهي تغني، على عكس شيخ صنعان الذي لم يأل جهداً في كتمان حبه بل قال لأصحابه بصراحة أنه وقع في حب الفتاة وإنه لا فائدة من لومه. هذا ليس بغريب، فالحب في الرواية الفارسية لا يحاول كتمان حبه إلا ما نزر بل على العكس يسعى للفت الأنظار إليه وعدم الإهتمام بما سيقوله الآخرين. فهذه الخاصية نلمسها في معظم قصص الحب الفارسية من عدم الإهتمام بكتمان سرّ الحب مثل قصة سیاوش وسودابه، شیرین وخسرو، ویس ورامین وغيرها. المضمون الذي يمكن ملاحظته هنا هو ذیوع الحب برغم سعي الناسك لكتمانه إلا أن الشيخ يقوم بإبرازه.

چند نالم بر درت، در باز کن

يك دمم با خويشتن دمساز كن..

(عطار، ١٣٨٧، ١٣٢)

المضمون الذي يمكن ملاحظته هنا هو سعي الناسك للقاء المحبوبة وتطوره إلى طلب الوصال مع تصوير حالة اليأس بسبب الفراق والهجران لدى شيخ صنعان لِمَا وَجَدَ من إعراض الفتاة عن حبه.

٤. عوائق خارجية: فارق السن: لا يقل عمر شيخ صنعان أثناء حدوث القصة عن خمسين عاماً برواية العطار، كذلك بالنسبة لعبدالرحمن الناسك إذا نظرنا لتاريخ وفاته ووفات سلامة، فقد كانا كبيرين في السن، ومعشوقتيهما مازالتا صغيرتي السن وقد رأينا كيف ارتعبت وتفاجئت الفتاة الرومية من مصارحته لها بحبه وكيف أنها صدته بقولها:

دخترش گفت: ای خرف از روزگار

سازِ کافور و کفن کن، شرم دار

چون دمت سرد است، دمسازی مکن

پیر گشتی قصدِ دلبازی مکن

این زمان عزمِ کفن کردن تو را

بهرت آید که عزم من تو را

(عطار، ١٣٨٧، ١٣٣)

أما سلامة فقد رحبت واستحسنّت محبوبها، السبب في ذلك يعود إلى الظروف المناسبة وكذا إلى من ساعده على لقائها وهو مولاها، ثانياً إعتدال الناسك في مقابلتها وعدم اندفاعه إليها ناهيك عن كونها سمعت عنه مسبقاً بحكم الجوار، لذا فإننا نرى استئناسها به ينعكس على حبه واشتياقه لها إلى درجة أنه يتمنى أن يبقى بجوارها كلما صدحت بصوتها:

ألا ليت أنني حيث صار بما النوي

جليساً لسلمي حينما عجز مزهراً

و إني إذا ما الموت زال بنفسها

يزال بنفسي قبلها حين تُقبرُ

(الإصفهاني، ج ٨، ص ٣٣٥؛ الجواري، ص ١١٠)

بعكس شيخ صنعان الذي أقحم نفسه ولم يجد عوناً أو سنداً يساعده في الوصول إليها كما أنها لا تعرفه ولم تراه من قبل. ثالثاً أنه طلبها للزواج بشكل مفاجئ دون زيارات متكررة تُمهّد له هذا الطلب. أما بالنسبة للفارق الاجتماعي:

فشيخ صنعان فقيه زاهد يسكن مكة ذو ثقافة عربية إسلامية وهي راهبة متبلة تسكن ديراً في بلاد الروم، ذات ثقافة رومية مسيحية؛ إلا أن الحب قد يُلغي ويتغلب على هذا الفارق الاجتماعي والجغرافي ولكن يبقى الفارق المادي: فالفقر آفة قلماً يتغلب عليه الحب. هذا الفارق الاجتماعي والمادي يكاد أن يكون غير ملموس في قصة سلامة القس لولا فارق الطبقة الاجتماعية بين سلامة وعبد الرحمن الناسك. فكلتا القصتين متشابهتان في هاتين النقطتين أيضاً. المضمون الذي يمكن ملاحظته هنا هو ظهور عوامل وعوائق خارجية تحول دون الوصال بين العاشقين، أبرزها فارق السن ثم الفقر ونهايةً الفارق الطبقي والاجتماعي.

٥. عوائق داخلية: تلعب الحالة النفسية والفكرية والثقافية دوراً بارزاً في نفسية الحب فكما لاحظنا أن شيخ صنعان عاشق مُتّيم بكل ما تعنيه الكلمة ويسعى لوصال محبوبته بأي طريقة كانت وكيفما اتفق، برغم أن الفتاة لم تأبه به مع التزامها بالعفة، فحبه من طرف واحد وهذا أشد أنواع الحب قسوة، أن تحب شخصاً لا يجيبك وأن تفكر في شخص لا يفكر فيك. بعكس عبد الرحمن الناسك فحبه منذ البداية حب استحسان وتأمل وعفاف غلب عليه الوجد والحرمان. لذا فهو يُصور لنا كيف أن محبوبته صادته بصوتها على الرغم من عبادته وزهده:

أن التي طرقتك بين ركائب

تمشي بمزهرها وأنت حرام

لِتَصِيدَ قَلْبِكَ أَوْ جِزَاءَ مَوْدَةٍ

أَنَّ الرَفِيقَ لَهُ عَلَيْكَ ذِمَامٌ
(الإصفهاني، ج ٨، ص ٣٣٥؛ الجواري، ص ١١٠)
كما بادلته سلامة نفس المشاعر - وربما أكثر - فحبها له
غلب عليه الطابع الحسي وهذا ما تُظهِره نهاية القصة، فهو يحبها
في الله وهي تحبه لنفسها. نلاحظ هنا أنَّ بطل رواية العطار يحب
من جانب واحد وهو ما تميزت به معظم قصص الحب في
الأدب الفارسي مع مراعاة درجة الحب لدى الطرفين مثل
خسرو وشيرين، فرهاد وشيرين، گل ونوروز، سیاوش
وسودابه وغيرها. هذا النوع من الحب لم يلق رواجاً في القصة
العربية مثل قصة يزيد وأرينب بنت اسحاق (راجع: ابن قتيبة،
٢٠٠٩، ج ١، ص ٢٤٠) أو ابن حزم والجارية (راجع: ابن حزم،
١٩٩٣، ص ٢٤٩). المضمون الذي يمكن ملاحظته هنا هو أنَّ
العفة والصدق في الحب العفيف يمكن أن تكون ضمن العوائق
الداخلية التي تُميز وتُخصّص الحب الصادق من الحب الواله.

٦. موانع الزواج: ساعدت العوائق الخارجية والداخلية
على ظهور موانع الزواج. هذه العوائق مُتمثلة في الشروط
التي وضعتها الفتاة المسيحية لمعرفة مدى حب هذا العاشق
وكذلك للخلاص منه. إنَّ موانع الزواج في حقيقة الأمر
هنا، تعود إلى كِبَر السن والفقر، أمّا غير ذلك فيمكن
تجاوزه، لذلك لجأت الفتاة إلى وضع هذه الشروط في
المرحلة الأولى لنجدها تطورت في المرحلة التالية إلى طلب
المهر مع علمها بأنّه فقير. فهنا نرى أنَّ الفتاة هي المانع لهذا
الزواج والشروط الثلاثة ما هي إلا ذريعة لإخفاء السبب
الأصلي وهو فارق السن والفقر. وربما تكون هذه الشروط
من نسج خيال الرواة. أما عبد الرحمن الناسك فكان الفارق
الاجتماعي والفكري حائلاً دون الزواج فهو عاشق زاهد لم
يصل إلى درجة الجنون التي وصل إليها شيخ صنعان، لذلك
نراه يضع لنفسه حاجزاً يحول دون التفكير في التمتع

بالحبيب. فالمضمون الذي يمكن ملاحظته هنا هو وجود
عوامل خارجية بالنسبة لشيخ صنعان مُتمثلة في الفقر
والشيخوخة، وداخلية بالنسبة للناسك مُتمثلة في العفة.

٧. لقاءات متكررة: نجد هنا أنَّ شيخ صنعان قد وصل
إلى درجة الجنون حيث قام بترك الإسلام والدخول في دين
المسيح وتنفيذ كل طلبات الفتاة طامعاً في وصلها - فتلبية
رغبات المحبوب من علامات الحب الصادق كما يرويها مؤلفو
كتب الحب - وهذا ما لاحظناه في القصة من خلال شغفه
وولفه وعفة الفتاة معه. وما الشروط التي وضعتها الفتاة للحيلولة
دون الزواج إلا ذريعة للخلاص من هذا العاشق الذي بلغت به
الجرأة أنَّ يعشق من ليست بمستواه من شتى النواحي، فلم يكن
يملك سوى قلبه العاشق. لذلك فقد عايش الحرمان في هذه
الفترة على الرغم من اللقاءات المتكررة. نجد ذلك في قوله:

ابن همه خد رفت، بر گوی اندکی

تا تو کی خواهی شدن با من یکی
چون بنای وصل تو بر اصل بود
هر چه کردم بر امید وصل بود
وصل خواهم و آشنایی یافتن

چند سوزم در جدایی یافتن
(عطار، ١٣٨٧، ١٣٦)

أمّا الناسك فقد تعلق بسلامة كما تعلق به وصقل
حبه لها مواهبه فصنع منه شاعراً عذب اللسان، فعاشاً أياماً
جميلة يكتب لها الأشعار وتغنيها، كأنما يتعانق العاشقان
بالإلفاظ والكلمات حين يتغزل القس وتغني سلامة:

أهابك أن أقولَ بذلتُ نفسي

و لو أني أطيع القلبَ قالا
حياءُ منك حتى سُلَّ جسمي
و شقَّ عليَّ كتمانِي وطالا
(إصفهاني، ج ٨، ص ٣٣٥)

بالرغم من هذا الفارق في اللقاءات المتكررة إلا أنَّ النجوى الصادقة لم تحلَّ من قلبيهما، فالفتاة الرومية كانت تواسيه وتُمنِّيهِ في لقاءاته معها كما ييئسها شكواه وحبهِ وحنينه إليها. فالمضمون الذي يمكن ملاحظته هنا هو العفة والصدق في الحب مع النجوى الصادقة في كلى القصتين إضافةً إلى تحمل المشقة والمعاناة عند شيخ صنعان.

٨. اللقاء الأخير: يَمَلُّ شيخ صنعان ويتعب من دلال الفتاة وغُنَجِها وكذلك رعي الخنازير الذي لا طائل منه فالفترة الزمنية التي عاشها معها هي فترة حرمان ويأس لذا نراه هنا لا يذهب ليودع الحبيبة بل يتركها دون علمها ويرحل. بعكس سلامة التي تصور حالة اليأس والحرمان من حبيبها حتى اشتد حبها ووصل ذروته وتمنت أن تعانقه إلا أنه يرفض ويتمنى لقاءها في الآخرة ثم يودعها ويرحل عنها، كما نجد هنا يخاطب نفسه بقوله:

ألا قُلْ لهذا القلب هل انت مُبْصِرٌ
و هل أنت عن سلامة اليوم مُقْصِرٌ

(م.ن، ج ٨، ص ٣٣٦)
المضمون الذي يمكن ملاحظته هنا هو تصوير حالة اليأس والحرمان مع نمو الحب ووصوله إلى ذروته لدى سلامة والتَّمسُّك بالعفة لدى القس، أما اليأس والحرمان فكانا من نصيب شيخ صنعان في هذا اللقاء.

٩. حب أبدي أم حب عابر: بحسب المقولة الشهيرة الجاز قنطرة الحقيقة (لاهيحي، ١٣٨٥، ص ٤١٠). فكلُّي العاشقين في هذه المرحلة يُبدي انصرافه من هذا الحب ويؤثر ما كان عليه من قبل، ورغم وجود الاختلاف في طريقة ذلك الإنصراف. فشيوخ صنعان يتوب عن حب الفتاة ويرحل مع أصحابه عائداً إلى مكة بسبب يأسه من الفتاة ودلالها. أمَّا عبد الرحمن الناسك فقد انصرف عن حب سلامة - التي ظننته هاوياً بسبب تأثير الحياة الاجتماعية

في المدينة بما فيها أشعار عمر ابن أبي ربيعة السائدة على الجو العام في ذلك الوقت - وآثر الزهد والخوف من الله والرجاء طمعاً في الآخرة على متاع الدنيا وملذاتها، وذلك كما جاء في نهاية القصة حين عاتب محبوبته في شعره يعاتب لأنها لم تدرك حبه لها في قوله:

باتت تُعَلِّلُنَا وتحسبُ أننا

في ذاك أيقاظٌ ونحن نيامٌ
حتى اذا سطع الصباح لناظرٍ
فإذا وذلك بيننا أحلامٌ

(م.ن، ج ٨، ص ٣٣٦)
فالمضمون الذي يمكن ملاحظته هنا هو معاتبة المحبوب بالإضافة إلى العفة والرضا بالقليل منه لدى عبد الرحمن الناسك والابتعاد عن المحبوب كَرَدَ فعلٌ لما يقوم به من جفاء لدى شيخ صنعان.

١٠. نهاية القصة: نرى أنَّ شيخ صنعان قد عاد من منتصف الطريق مستجيباً لنداء قلبه ليلقى محبوبته وهذا في حد ذاته دليلٌ على استمرار ونمو الحب ووصوله إلى ذروته عند العشاق العذريين، وهناك شواهد من هذا القبيل في قصصهم لاجمال لذكرها هنا، أمَّا العرفاء فيفسرون عودة الشيخ بالإلهام الغيبي الذي يطرأ على الحب العارف بالله. هنا تنتهي القصتان بفراق الحبيين فالفتاة تموت ويعود الشيخ العاشق إلى دياره وحيداً مع أصحابه. كذلك غادرت سلامة وحيدة برفقة مولاهما إلى المدينة. فالبرغم من وصول الحب إلى ذروته بالنسبة للفتاة وشيخ صنعان إلا أنَّ المضمون الذي يمكن ملاحظته هنا كما هو السائد لدى العشاق العذريين هو أنَّ الفراق والهجران من نصيب العاشقين لعل اللقاء يكون في الآخرة وهو ما يُفهم من نهاية حياة الفتاة الرومية، أيضاً كما صرَّح به عبد الرحمن الناسك عند فراقه لسلامة.

نرى أنَّ المضمون العام للقصتين هو الحب العفيف الطاهر الذي يستأنس به المحب عند القرب من المحبوب فالمضمون في قصة شيخ صنعان هو أنَّ النساء مغريات ومغويات ولكنَّ تَحَوَّلَ هذا المضمون عند فريد الدين العطار إلى أنَّ حب النساء هو حب مجازي وأنَّ المرأة عبارة عن ابتلاء للمحب العارف والزاهد العابد وأنَّه لا يَعْبُرُ إلى الحقيقة إلا بعد أنَّ يَمُرَّ من بوابة المجاز، فالجواز قنطرة الحقيقة. كذلك بالنسبة لعبد الرحمن الناسك، إلا أنَّ الرواة لم يركزوا على هذه النقطة بل كان أكثر تركيزهم على الحب العفيف الطاهر واللقاءات التي جمعت بين الحبيين وعلى قوة الإرادة والزهد عند عبد الرحمن الناسك. إضافةً إلى أنَّ الزهد والعفة لهما الغلبة على الحب الحسي مهما كانت مغرياته، فالحب العذري أسمى وأرقى من المغريات الجنسية حتى ولو كان الفراق والمجران نصيب العاشقين.

نتيجة البحث

تمتاز معظم قصص الحب في الأدب الغنائي الفارسي ببداية الحب فيها عن طريق سماع وصف المحبوبة على الأغلب، بعكس ما تمتاز به قصص الحب في الأدب العربي حيث يبدأ الحب فيها عن طريق نظرة أو لقاء المحبوب والتحدث إليه. أمَّا بالنسبة لإفشاء سرِّ الحب فلا أهمية له في القصة الإيرانية لأنَّ العاشق لا يجد حرجاً في إفشاء حبه وقد تجلَّى هذا المضمون بشكل واضح في هذه القصة فالعاشق هو الذي سعى لإبراز حبه، وذلك بعكس القصة العربية التي حاول فيها المحب أنَّ يكتُم حبه وقد رأيناه يتحرج من إفشائه.

من الاختلافات التي شاهدناها في القصتين هي أنَّ المانع للوصال في قصه شيخ صنعان هي الفتاة الرومية بعكس قصة سلامة القس التي كان المانع فيها هو عبد الرحمن القس نفسه - يذكرنا هذا أيضاً بموقف شيرين من خسرو فقد

كانت هي أيضاً المانع للوصال غير الرسمي - لذلك تتجلى هنا خاصية من خصائص الحب العذري، هي العفة وعدم تدنيس الحب، على الرغم من التباين في الهدف من القصتين. لقد استخدم العطار الحب العذري من أجل تبيين الحب الإلهي وهو ما قصد به «المجاز قنطرة الحقيقة» لأنَّ الحب العذري فيه يأس وحرمان يجعل صاحبه يكتب بنار الفراق والمجران مما يقوده إلى النحول والهذيان وقد يتطور في بعض الأحيان إلى الجنون كما حدث لشيخ صنعان ومن قبله مجنون ليلي.

لاحظنا أنَّ العاشق في القصة الإيرانية هو الذي سعى إلى الوصال كيفما كان، بعكس القصة العربية التي حاولت المعشوقة فيها الوصال كيفما اتفق. هذا يدل على عفة المحب أكثر من المحبوبة في القصة العربية والعكس صحيح بالنسبة للقصة الإيرانية مما نستنتج من خلاله مكانة المرأة ونوع الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت وهذا لا ينطبق بالتأكيد على بقية قصص الحب الأخرى.

أخيراً نجد أنَّ حب العارف كان جنوناً بمعنى الكلمة بعكس عشق الزاهد الذي كان ملتزماً في حبه غير شارد عن طريقته، فدلالة عنوان المقالة جاءت منسجمة مع مضمون القصتين، السبب في ذلك يرجع إلى اعتدال الزاهد في حبه وجنون الشيخ بخروجه عن نطاق الإسلام بسبب حبه.

أمَّا بالنسبة للهدف السردى من القصتين فإننا نجد متبايناً نسبياً فقصة شيخ صنعان ذات عبرة وعظة لمن هم في مرتبة المريد السالك في التصوف والعرفان موضحةً علاقة الشيخ بمريديه فهذه القصة رمزي عرفاني، أمَّا قصة سلامة القس فعلى الرغم من كونها وعظمية إرشادية، إلا أنَّ هدفها هو تبيين عفة الحب العذري الذي يقوم على أساس حب المحبوبة لذاتها وليس لحاجة يقضيها منها، كذا يظهر مدى التأثير الديني على معتنقه وأنَّ الزهد والخوف من الله يجعل المتمسك به بعيداً عن

ارتكاب المحرمات مهما كانت متوفرة، و هي تُذكرنا أيضاً بقصة يوسف وزليخا مما لا يدع مجالاً للشك بين العلاقة القائمة بين الحب العذري والحب الصوفي.

نرى أنّ التتابعات السردية للقصتين تدل على الحالة الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، لذلك نجد نمو الحب الإلهي عند الفرس بمختلف طبقاتهم. وهو ما نراه اليوم من وجود نوعين من الحب لا ثالث لهما مع وجود الحب العفيف ضمن هذين النوعين وعدم الإهتمام به لإنشغالهم بالحب الإلهي عن تقسيم الحب المجازي إلى حسي (ماجن) وغير حسي (عفيف)، بينما نجد الحب العذري مواصلاً نموه جنباً إلى جنب مع الحب الإلهي وربما أكثر لرواجه لدى مختلف أطراف المجتمع العربي لما ميّزه عن الحب الحسي الماجن.

الهوامش

١. توفي شيخ صنعان عام ٢١١ هـ. ق (المقحفي، ج ١، ص ١٨)، أما الفتاة الرومية فقد رحلت إلى الدار الآخرة برواية فريد الدين العطار قبل شيخ صنعان.
٢. حاولنا التحقق من تاريخ وفاتها فلم نقف على شيء واضح جلي يمكن الاستناد عليه وقد رجحنا من التواريخ المنقولة في نسخ إلكترونية بالإعتماد على الأحداث التاريخية للقصة أنّ وفات الناسك حوالي ٨٣ هـ. ق وسلامة المغنية حوالي ١٣٠ هـ. ق. (راجع: موسوعة الشعر العربي، ٢٠٠٩، قسم الشعراء، ذيل: سلامة القس) أي بعد وفاة يزيد بن عبد الملك بخمسة وعشرين عاماً بعد أن ظلت تندبه في أشعارها.

فهرس المصادر والمراجع

- [١] القرآن الكريم.
- [٢] إبراهيم، عبد الحميد: قصص العشاق النثرية في العصر الأموي، القاهرة، ١٩٧٢ م.

- [٣] ابن الجوزي، أبو الفرج: أخبار النساء، تحقيق إيهاب كريم، دار النديم، بيروت، ١٩٩١ م.
- [٤] ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣ م.
- [٥] ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: عيون الأخبار، ج ٤، ط ٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٦ م.
- [٦] —، الإمامة والسياسة، عبد الجبار ناجي، مكتبة مجلس الشورى الإسلامي، طهران، ٢٠٠٩ م.
- [٧] الإصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، ج ٦، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥ م.
- [٨] —، الأغاني، ج ٨، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥ م.
- [٩] ستاري، جلال: پژوهشی در قصه‌ی شیخ صنعان ودختر ترسا (بحث حول قصة شيخ صنعان و الفتاة المسيحية)، ط ٤، نشر مركز، طهران، ١٣٨٧ هـ. ش.
- [١٠] الجوّاري، أحمد عبد الستار: الحب العذري نشأته وتطوره، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٦ م.
- [١١] دانش پژوه، محمد تقی: تحفه الملوك إمام ابو حامد غزالي، مجله كلية الآداب بمشهد، العدد ٣٠٢، السنة الأولى، ١٣٤٤ هـ. ش.
- [١٢] رستگار فسایی، منصور: انواع شعر فارسی، انتشارات نوید، شیراز، ١٣٨٠ هـ. ش.
- [١٣] ضيف، شوقي: الحب العذري عند العرب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٩ م.
- [١٤] عطار نيشابوري، فريد الدين: منطق الطير، بإشراف سيد صادق گوهرين، ط ٢٣، علمی وفرهنگی، طهران، ١٣٨٥ هـ. ق.

- [١٥] —، تصحيح شفيعي كدكني، ط٤، انتشارات سخن، طهران، ١٣٨٧ هـ.ق.
- [١٦] العظم، صادق جلال: في الحب والحب العذري، دار المدى، ط٨، دمشق، ٢٠٠٧ م.
- [١٧] غنيمي هلال، محمد: الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٦ م.
- [١٨] القيسي، أحمد ناجي: بحث في حقيقة شيخ صنعان، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٥ م.
- [١٩] لاهيجي، شمس الدين محمد: مفاتيح الإعجاز في شرح گلشن راز، محمدرضا خالقي برزگر، ط٦، زوآر، طهران، ١٣٨٥ هـ.ش.
- [٢٠] لبيب، الطاهر: سوسولوجيا الغزل العربي، ترجمة المؤلف، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩ م.
- [٢١] المقحفى، إبراهيم، موسوعة الالقاب اليمنية، ج١، المؤسسة الجامعية، بيروت، ٢٠١٠ م.
- [٢٢] موسوعة الشعر العربي، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، الإصدار الأول، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٩ م.

جنون عارف و عشق زاهد در پرتوی عشق عذری (با تأکید بر شیخ صنعان و سلامه القس)

یحیی عبید صالح عبید^۱، غلام حسین غلام حسین زاده^۲، کبری روشن فکر^۳

تاریخ دریافت: ۱۳۸۹/۱۲/۱

تاریخ پذیرش: ۱۳۹۰/۳/۳۱

داستان شیخ صنعان یکی از داستان‌های عاشقانه عرفانی نزد عرفاست، این داستان شبیه داستان زاهدانه عبدالرحمن ناسک مشهور به القس است. داستان سلامه القس دارای ویژگی‌های عشق عذری است، این نوع عشق نزد عرفا و زهاد به حکم «المجاز قنطرة الحقيقة» عبارت از راهی برای رسیدن به عشق حقیقی است و عبور از آن شرطی برای رسیدن به معشوق ازلی است.

بررسی مضامین داستان شیخ صنعان و دختر ترسا نشان می‌دهد که این داستان دارای ویژگی‌های عشق عذری است و شایستگی مقایسه با داستان سلامه القس را دارد؛ ما در این مقاله با استفاده از دو روش تاریخی و توصیفی-تحلیلی و براساس رویکرد نقد تطبیقی در مدرسه‌ی امریکایی، این دو داستان را از حیث مضمون و موضوعات عاشقانه با عنایت به ویژگی‌های عشق عذری در ادبیات غنایی و پیوند عشق عفیف (مجازی) با عشق الهی (حقیقی) در ادبیات عرفانی، بررسی کرده‌ایم. آشکار ساختن شباهت‌ها و تفاوت‌های میان این دو داستان برای دسترسی به تفاوت‌های فکری، فرهنگی و مذهبی حاکم در آن زمان، توجه محققانی را که در این زمینه فعالیت دارند جلب می‌کند تا منظومه‌های عاشقانه را بار دیگر با نگاهی نو مورد بررسی قرار داده و با نظایر آن‌ها در پرتو عشق عفیف مقایسه کنند.

کلید واژگان: شیخ صنعان، سلامه القس، مضامین عاشقانه، عشق عذری، ادبیات تطبیقی

۱. دانشجوی دکتری گروه زبان و ادبیات فارسی دانشگاه تربیت مدرس، yahyaobaid@live.com

۲. دانشیار گروه زبان و ادبیات فارسی دانشگاه تربیت مدرس، gholamho@modares.ac.ir

۳. استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه تربیت مدرس، KRoshanfeker@gmail.com